يلزمون به الخطباء من ذكرهم على المنابر بأوصافٍ لم يرها سائغة شرعاً. وصبر على فقرٍ شديد، وسمع بالإسْكندرية على الحافظ أبي طاهر السِّلَفي، ثم قدم القاهرة، فطلبه القاضي الفاضل للإقراء بمدرسته، فأجاب بعد شروط اشترطها عليه على ما كان فيه من الفقر. وقدم بيت المقدس زائراً قبل موته بثلاث سنين، فصام به شهر رمضان، واعتكف عند الصخرة. قال لي الشيخ أبو الحسن: سمعته وقد جاءه رجلٌ يودِّعه، والرجل عازمٌ على المسير إلى القدس، فقال ذَكَرَ اللهُ ذلك الموضع عنا بخير. وقال: ما أعلم موضعاً أقرب إلى السماء منه بعد مكة والمدينة. قال الشيخ: فَعَلِمْتُ أنه رُزِقَ ثَمَّ قبولاً. وقال: أقطع بأنه كان مكاشفاً، وأنه سأل الله تعالى كتمانَ حاله، ما كان أحدٌ يعلم أيَّ شيء هو.

قلتُ: وقد ذكرتُ طرفاً صالحاً من أخباره وأوصافه في أوّلِ شَرْحي الكبير[1] لقصيدته الكبرى، وأخبرني عنه جماعةٌ من أصحابه، رحمهم الله تعالى.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين [وخمس مئة][2]

ففيها قَدِمَ العزيزُ بنُ صلاح الدِّين إلى الشَّام مرَّةً ثانية، فنزل على الفَوَّار في شهر رمضان، ثم رحل منه إلى مِصْر لمّا سمع بقدوم العساكر مع عمه العادل وأخيه الأفضل، فرحل عائداً إلى مصر، وتبعاه إلى القاهرة، وخرج الفاضل فأصلح الحال، فدخل العادلُ مِصْرَ مع العزيز، ورجع الأفضل إلى الشَّام.

---

(١) شرح أبو شامة قصيدة الشاطبي «حرز الأماني» شرحين: شرحه الكبير وهو الذي يشير إليه هنا، ولم يتمه، وقد بلغ فيه باب الهمزتين من كلمة، وقد جاء في نحو مجلدة، ثم فكر في قصور الهمم، فشرع في اختصاره، وسماه «إبراز المعاني من حرز الأماني»، وهو المطبوع بمصر في مكتبة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م بتحقيق إبراهيم عطوة عوض، ولم يورد فيه أبو شامة إلا خبراً موجزاً عن الشاطبي لا يعدو ذكر ولادته ووفاته، انظر المقدمة منه ص ٨.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

وفيها حجَّ بالنَّاس من بغداد سنجر النَّاصري، ومن الشام سراسُنْقُر، وأيبك فطيس الصَّلاحيان، ومن مِصْر الشريف إسماعيل بن ثعلب الجَعْفري، من ولد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفيها كانت بالمغرب وقعةُ الزلاقة[1]، وكانت وقعة عظيمة بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين الفنش ملك طُلَيْطُلة، وكان الفنش قد استولى على جزيرة الأندلس، وقَهَرَ ولاتها، وكان يعقوب ببرِّ العُدْوة مشغولاً عن نُصْرتهم بالخوارج الخارجين عليه، وبينه وبين الأندلس زُقاق سَبْتَة، وعَرْضُه ثلاثة فراسخ، ويحتاج في عبوره إلى مشقَّةٍ عظيمة، وطمع الفنش في المسلمين بهذا السبب، وكتب الفنش إلى يعقوب ينخيه في الدخول إليه[2]، فسار إلى زُقاق سبتة، فنزل عليه، وجمع الشَّواني، والمراكب، وعَرَضَ جُنْده فكانوا مئتي ألف مقاتل، مئة ألف يأكلون الديوان، ومئة ألف مطوعة، وعبر الزقاق إلى مكانٍ يقال له الزلاقة، وجاءه الفنش في مئتي ألف وأربعين ألفاً من أعيان الفرنج والمقاتلة، والتقوا، فنصر الله المسلمين، وهرب الفنش في نفرٍ يسير إلى طُلَيْطُلة، وغَنِمَ المسلمون ما كان في عسكره، فكان عِدَّةُ من قُتِلَ من الفرنج مئة ألف وستةً وأربعين ألفاً، وعِدَّةُ الأسارى ثلاثون ألفاً، ومن الخيام مئة ألف خيمة وخمسون ألفاً، ومن الخيل ثمانون ألفاً، ومن البغال مئة ألف، ومن ٨

(١) كذا قال، وهو وهم منه تابع فيه سبطَ ابن الجوزي في «مرآة الزمان»، والصواب أنها وقعة الأَرَك، أما الزلاقة فهي وقعة أخرى كانت سنة (٤٧٩ هـ)، وبطلها يوسف بن تاشفين، وهما أختان فيما ألحقتاه من هزيمة منكرة بجيوش النصارى في الأندلس.

انظر عن معركة الأرك: المعجب: ٤٠٤ ـ ٤٠٦، والكامل: ١٢/ ١١٣ ـ ١١٦، وعصر المرابطين والموحدين لعبد الله عنان: القسم الثاني ص ١٩٧ ـ ٢١٤.

وعن معركة الزلاقة: المعجب: ١٩٥ ـ ١٩٩، والكامل: ١٠/ ١٥١ ـ ١٥٥، وكتاب دول الطوائف لعبد الله عنان: ٣٢٠ ـ ٣٣٢.

(٢) في (س): في العبور إليه.

وانظر كتاب الفنش إلى يعقوب في «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٥٩١ هـ) بتحقيقي.

الحمير أربع مئة ألف حمار، تحمل أثقالهم لأنهم لا جِمالَ عندهم، ومن الأموال والجواهر والثياب ما لا يُعَد[١] ولا يحصى، وبيع الأسير بدِرْهم، والسيف بنصف درهم، والحصان بخمسة دراهم، والحمار بدرهم. وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين على مقتضى الشريعة، فاستغنوا إلى الأبد.

ووصل الفنش طليطلة على أقبح حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكسَّ صليبه، وآلى أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرساً ولا دابةً حتى يأخذ بالثأر، وأقام يجمع من الجزائر والبلاد ويستعد.

وقيل: إنما كانت هذه الواقعة في سنة تسعين وخمس مئة، والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين [وخمس مئة][٢]

ففيها نُقِلَ تابوتُ صلاح الدين رحمه الله من القلعة إلى التربة المستجدَّة له شمالي الجامع.

وفيها قدم العزيز إلى الشَّام مرة ثالثة مع العادل، ونزلا على جسر الخشب، وانفصل الحال على أن خرج الأفضل منها إلى صَرْخَد، وتسلَّمها العزيز، وسلَّمها إلى عمه العادل، وأسقط مكوسها، والخُطْبةُ والسِّكَّة باسم العزيز. وأُخذت قلعة بُصْرى من الظافر خضر بن صلاح الدين، ورجع العزيز إلى مصر.

وفيها حَجَّ من مصر الشريف ابن ثعلب وجماعةٌ من الأعيان، وأنفق أموالاً كثيرة.

وفيها بعد خروج الحاج من مكة هَبَّت ريح سوداء عَمَّتِ الدُّنيا، ووقع على الناس رملٌ أحمر، ووقع من الرُّكْن اليماني قطعةٌ، وتجرَّد[٣] البيتُ الحرام مراراً.

---

(١) في (س): ما لا يحد.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٣) في «مرآة الزمان»: وتحرك.